ارتفاع الصليب

خبر منسوب الى القديس كيرلس اسقف اورشليم
٣١٣-٣٨٧م

نشره لاول مرّة ، وعلّق عليه
الخوري بولس قرألي ، مدير المجلة البطريركية

١
توطئة

لما كانت هذه التوطئة درساً للميمر قسمناها الى ثلاثة ابحاث :
١ - في نسخه واهميته ٢ - في الاعتراضات عليه ٣ - في صحة نسبته

البحث الاول
في نسخه واهميته

نستهلّ هذا البحث بكلمة في تكريم الصليب في الشرق قديماً ، وفي لبنان حالاً . وننتقل منها الى وصف نصّ الميمر في مخطوطتي بكركي وحلب ومقابلتهما . ونختمه بترجمة وجيزة للقديس كيرلس الاورشليمي ، وببيان عام لاهمية الميمر .

١ — ارتفاع الصليب في الشرق

أتيح للشرق أن يكون مهد الانسان والعمران ، ومهد العلوم والفنون والاديان . وأتيح لسورية أن تكون دماغه المفكر ، وقلبه الحسّاس ، ولسانه الفصيح . وهي ، ان لم تكن يوماً بالبطش والسيف سيدته ، بل غالباً عبدته ، فقد تسلطت دائماً على عقله بثقافتها وعلى قلبه بعاطفتها ، وبسطت عليه عقائدها وشرائعها .

اصطفاها الرب لأن تكون أرض الميعاد لشعبه وانبيائه ، ومهبطاً لوصاياه واوحيته ، ومسرحاً لآياته ، وهيكلاً لعبادته . واختارها السيد المسيح لان

تكون مهداً لطفوليته ، ووطناً لانسانيته ، وحقلاً خصباً لتعاليمه ، ومشهداً لصلبه وقيامته ، ولساناً مبشراً برسالته وألوهيته وشرائعه الرفيعة السامية . فنشأ الدين المسيحي فيها ، ومنها تفرّعت اشعته وتوزّعت على كل المعمور .

في السنة الثالثة والثلاثين للميلاد ارتفع الصليب على الجلجلة حاملاً الاله المتجسد ، باسطاً يديه صلباً علامة الحب والتضحية والغفران . فتبدّل وجه الكون الادبي : ارتفع العدل على الظلم ، الحلم والدعة على الغضب والعجرفة ، الطهر والحياء على الخلاعة والعهارة ، التقشف والزهد على السكر والشره ، القناعة والتجرّد على الطمع والجشع ، المحبة والاحسان على الحقد والانتقام . فتشرفت بالصليب الفضيلة على الرذيلة ، وتساوى العبد والسيد ، والفقير والغني ، والضعيف والقوي .

ثم ثارت الوثنية المؤلهة للرذيلة ثائرها على ديانة الصليب ، وحاولت ان تسترد مركزها ، فلقيت حتفها . كانت الاضطهادات الاولى موجةً هوجاء لطمت النصرانية لطمات عنيفة توالت ثلاثة قرون ، فلم تقوَ على سحقها ، بل صقلتها واخرجتها من هذا المحك لؤلؤةً ناصعة البياض ، نقيةَ الجوهر ، صلبةَ المعدن . أما الموجة فانكسرت حدتها حالما ظهر رسم الصليب في الفضاء ثم تلاشت . . .

في مطلع القرن الرابع ظهر الصليب لقسطنطين الملك نجماً لامعاً في قبة السماء . فاتخذه حرزاً وترساً وعلماً ، وتغلّب به على مزاحميه واعدائه ، واصبح امبراطور العالم . فاوقف الاضطهاد الذي أعلنه على النصرانية ديوقليانوس سلفه ، وأسس الامبراطورية المسيحية على ضفتي البوسفور ، مفرق الشرق والغرب . تساقطت الاصنام ، وتهدمت هياكلها[1] ، وقامت الكنائس والصلبان على أنقاضها . تحوّل صليب العار الى علامة الشرف والانتصار ، وارتفع على جباه البشر ومخادعهم وابواب منازلهم وقصورهم ومدنهم ، وزوايا ازقتهم وشوارعهم ،

---

١) في سنة ٣٣٠ انقل هيكلي الزهرة في بعلبك وأفقا بلبنان . راجع معجم الاثار المسيحية ، للاب كابرول ، مجلد ٣ : عمود ٢٦٧٠

جلس في صدور قاعاتهم ودواوينهم ومجالسهم ، ولمع على تيجان احبارهم وملوكهم وصولجاناتهم ، مصوغاً بأثمن المعادن ، مرصعاً باكرم الحجارة وازهاها .

وما طال الامر حتى ظهر عود الصليب المقدس المطمور في ارض الجلجلة ، فاهتز العالم لهذا النبأ حبوراً . وشيّد له الامبراطور قسطنطين كاتدرائية عظيمة فخيمة على انقاض هيكل الفشحا.[1] ، واخذت الامم كبارها وصغارها ، ملوكها واعيانها واحبارها تتقاطر للاكتحال برؤيته وتكريمه والتبرك منه . وجعل قسطنطين يوم تدشين كنيسته عيداً عظيماً في الامبراطورية كلها ، كان يدوم ثمانية أيام ، وينتهي بحفلة ارتفاعه « هيبسوزيس » (*Hypsosis*) . كان يعتلي الاسقف مكاناً مرتفعاً ويرفع الصليب بيديه على رؤوس الجماهير ، ويبارك به اربعة اقطار المسكونة ، فيصرخ الشعب بحماس : كيرياليسون !

وطالبت سورية الشمالية بحصتها من هذا العود الثمين ، فقُسم الى ثلاثة اقسام : قسم بقي محفوظاً في كنيسة القيامة بالقدس ضمن ذخيرة كبيرة من فضة ، وآخر أرسل الى القسطنطينية ، والثالث أودع مدينة حماة . وكانت حفلة ارتفاع الصليب تُقام في اليوم نفسه في هذه العواصم الثلاث ، فتعم بهجتها ونعمها جميع مسيحيي الشرق .

وفي سنة ٥٧٤ ، على أثر غزوات الفرس لسورية ، حُملت ذخيرة حماة الى القسطنطينية . وفي سنة ٦٢٨ استخلص الملك هرقل ذخيرة اورشليم من ايدي الفرس الغزاة وأتى بها في سنة ٦٣٣ الى القسطنطينية . فاحتكرت عاصمة الامبراطورية الرومانية ذخائر العود المقدس . بيد انها ضاعفت الحفاوة بعيد ارتفاعه بكل ما أوتيت من عظمة وثروة وفخفخة . وكانت النصرانية باسرها تشاركها في هذه الحفاوة بالصلوات والمظاهرات والزينات ؛ فيتحول ظلام ليلة العيد الى مصابيح زاهرة ونيران باهرة ، وسكونه الى اكبر مظاهر الحماسة الدينية وأفخمها .

---

١) كان للزهرة معبد بُني على تلّ من تراب رُدم به القبر . راجع معجم كابرول مجلد ٣ : عمود ٣١٢٥

٢ ــ ارتفاع الصليب في بنائه

ما كاد عود الصليب المقدس يخرج من يد سورية حتى داهمها خطبٌ جلل لم يقم فيها للنصرانية بعده قائم . كانت العلة قد استحكمت من جسمها ، وكمنت تنخر في عظامها . فشت فيها بدع الاريوسية ، فالنسطورية ، فاليعقوبية ، وتمكنت منها ففككت اوصالها . وفي القرن السادس توالت عليها غزوات الفرس ، فاجهزوا على قواها : نهبوا واخربوا واحرقوا وذبحوا . انما ذهبوا : كموجة هوجاء تهجم وتلطم ، ثم تنحسر .

وفي اوائل القرن السابع تجمّع في الصحراء سيلُ العرب العرمرم وطغا على سورية المسيحية فأغرقها ، واجتازها الى وادي النيل ، فالمغرب ، فاسبانية ، فايطالية . تداعت معابدها الواحد تلو الآخر ، وسقطت او تحولت الى جوامع . انكسرت نواقيسها ، وعلت المآذن كأقدرانياقها ، واحتل الهلالُ مواقع صلبانها . طُمرت اسفارها ، وامّحت رويداً آثارها الدينية والعلمية والفنية والادبية ، وخيّم الدمار والجهل والذلّ على أمجادها . نزل صليب الخلاص والنصر والشرف عن مبانيها ومداخل مدنها ودواوينها ، وعادت شارتُه عارًا وذلًا لراسميها ، وعلامتُه خطرًا على حامليها .

تضعضع مسيحيّو سورية أمّ الكنائس ومعلمتها الاولى[1] . استسلموا للغازي صاغرين ، او انضموا اليه جاحدين ؛ ما عدا فئة قليلة عزّ عليها الخنوع والجحود ، فتركت المدن العامرة والسهول الخصبة لتعتصم بجبال لبنان الوعرة القاحلة ، حيث انشأت دولة مسيحية مستقلة متضامنة تحت ألوية رؤسائها ومقدّميها . وفي هذا الحصن المنيع دافعت ثلاثة عشر قرنًا طوالًا عن حريتها المدنية والدينية وتقاليدها العزيزة ، راضيةً بالفقر والجهاد عن الذلّ والالحاد .

حاول الطغيان عبثًا ، طيلة هذه القرون العديدة ، أن يغرّق الجبل الاشم .

---

١) نعني هنا ان الديانة المسيحية قد انتشرت منها . ففي رسالة وجهها الاساقفة الخارجون من مجمع القسطنطينية الاول سنة ٣٨١ الى البابا داماسوس ، او الدمشقي ، لقبوا كنيسة اورشليم بأم الكنائس ، كما سيأتي الكلام في ترجمة القديس كيرلس .

هاجم مرارًا سواحله ، وطوّق جوانبه ، وتسلّق احيانًا بعض مرتفعاته ، انما لم يثبت له فيها قدم ، فالمحدر ، كموج البحر اذا هاجم طودًا منيعًا ضرب شواطئه وحاصرها مزبدًا مرعدًا ، انما لا يسعه بلوغ قمته ، وان بلغها لا يسعه الاستقرار فيها ، فينحسر عنها . كان لبنان هذا الطود منذ القرن السابع ، وما زال باذن الله حاميه !

اصبح لبنان حصن النصرانية بعد سقوط سورية في ايدي العرب ، وحصن الكثلكة وملجأها الوحيد في الشرق بعد سقوط القسطنطينية الاول في هوّة الشقاق وسقوطها الثاني في ايدي الاتراك

ولم يعد يسمع صوتُ الرب جليًا في الشرق ، الا خلال ارز لبنان الباسق . ولم يبقَ اصليبه ملكًا في الشرق ، الا في هذا الجبل المقدس . . .

اينما جلت فيه واجلت النظر وجدت الصليب مرتفعًا على قمه وسفوحه وابنيته . فوق كل هضبة سائدة على جوارها ، كما يسود لبنان على جواره ، ترى له معبدًا احتلّ قمتها بارتياح وطمأنينة وثبات جنان . حجارة بيضاء ، قطعها عماله من صخورهم الجبلية ، ونحتها صناعه وزخرفوها بمهارة وعبادة . قبة ظريفة مستديرة ام مسلّة رشيقة ، راكزة على اعمدة رخامية أنيقة ، ويتدلى داخل تقعرها ، كالاجاصة بين اغصانها ، جرسٌ سبكته أيدٍ لبنانية ، اذا ترنّح سمعت له رنات ما اعذبها في الآذان وأوقعها في القلوب . هي نداء ، ودعاء ، وغناء . هي نغمة سرور وعبدة وحمد وشجون تهبط على فؤادك من تلك القبة الهيفاء وتحرك فيه اعذب الاوتار . ثم تتسكب موجاتها بركات وتعزيات على اسطحة القرية ومنعطفاتها ، على اغراسها وحافاتها . واذا بالقوم ينسلّون من اكواخهم وبيوتهم ، من ازقتهم وحقولهم ، تاركين اشغالهم واطفالهم تلبيةً لدعوته المحبوبة . وقد أنِفوا سماعها واستعذبوا لقاءها منذ طفوليتهم . فنغماتها تهيج في صدورهم اكبر ذكريات وتعزيات حياتهم الساذجة الهادئة ، واحلاها وابقاها .

وما هي هنيهة حتى تسمع الياسر المؤثرة والالحان الشجية ، المذكرة بعصور النصرانية القديمة المجيدة ، تختلج في صحن المعبد فترتج لها جدرانه خشوعًا . ثم تتدفق من فتحاته وتصعد على اجنحتها الروحية في الجوّ الصافي نحو قبة السماء

الاطلسية ، حيث تمثل ساجدةً أمام العزة الالهية ، مسترحمةً مسترضيةً عن هذا القطيع الصغير الباسل[1] : « احمه يا رب من حكامه الظالمين واعدائه الروحيين ، من المبتدعين والمنشقين ، من الاباحيين والملحدين والمفسدين ، الذين يهاجمونه ، كالذئاب الكاسرة ، من كل جانب بلا شفقة ولا كلل ! ... »

وقد صانه الرب ويصونه : صان شعوره الديني وحريته المدنية وآدابه القومية . وان شئتَ ان تعرف السرَّ في هذه الرعاية الخاصة ، فارفع نظرك الى الصليب اللامع على تلك القبة بين السماء والارض . هو الوسيط والحامي والمقوّي . هو الشاري الذي يدرأ عنه صواعق الضربات الادبية والزمنية ، ويستجلب له غيوث البركات والمعونات الالهية .

وقد ارتاح الصليب ، بعد ان سقط في الشرق عن الكاتدرائيات والقصور وشوارع العواصم ، ان يملك هنا وحده على هذا الشعب المختار : على قلبه المستقيم وعاطفته الخالصة ، على عقيدته الراسخة واخلاقه الرضية . على روابي جبله الشماء ، واعاليه الناصعة بالثلوج ، وربوعه الفتانة ، وجوّه النقي الزاهي الالوان . تراه هنا يُرسم باحترام وحبّ على جبين الصغير والكبير ، ويرتفع على كل منزل انيق ام حقير ، منحوتاً في الصخر او مصبوباً بالنحاس على منزل الوجيه ، او مرسوماً بالكلس الابيض على باب الوضيع وقبو مواشيه . هو يترأس هنا ، كما في عصر اجداده ، كل اجتماع ، ويتصدر كل قاعة ، يحرس كل مخدع ومهد ، يتدلى من اعناق الاطفال ، ويلمع على صدور الفتيات .

هو يحبُّ اللبنانيين ويعزّهم لانهم يحبونه ويعزّونه . وقد حافظوا وحدهم طيلة ستة عشر قرناً على حفلة ارتفاعه القديمة . يحتفون بها بكل ما أوتوا من حماس وما تملك ايديهم من ثروة . في ليلة الرابع عشر من ايلول المحتَّ لعيده يحوّلون جبلهم ، من اقصاه الى اقصاه ، الى زينة عظيمة من الانوار والنيران . تقدّم لاكرامه تربتُهم هشيمها ، وأشجارهم اعوادها ، وغاباتهم احطابها ،

---

١) عن الترجم الماروني : خاتمة الساعة السادسة من يوم الاربعاء : أه نه نحفه ضوحه١١ . وأمه كنه نحفا وهمثا . فنثا معدما كمفا . كحنض هكفنفض .

ومنازلهم شرفاتها، وكنائسهم اسطحتها، وتلولهم اكتافها، وسفوحهم نتوءاتها، وكهوفهم واوديتهم بطونها العميقة لترديد اصوات الزغاريد والاناشيد والتراويد، واصوات الزمور والطبول والاجراس والبارود.

وعلى اضواء المشاعل والنيران تشاهد الشعب كلّه مجتمعاً لهذه التظاهرة القومية : احباره وكباره، نساؤه ورجاله وصغاره، وقد اشتدّ سرورهم وحماستهم، وعلا هُتافهم، والشبان يدبكون ويقفزون فوق النيران المتأججة، غير مبالين بلهيبها المتعالي، صارخين بملْ صدورهم :

تحيةً لدين المسيح ! كيرياليسون !

والجماهير تردّد بهتاف يشقّ كبد السماء، كما في اورشليم وحماه في عصور مجد النصرانية :

كيرياليسون !!!

وقد هزّت اصوات تمجيد الصليب الفضاء الواسع الحالك، وبرجت احشاء الكهوف والاودية، وتدفّقت كالشلالات الزاخرة على المدن والسهول والبحور المنبسطة تحت اقدام الجبل الجبار، فتهيّبت . وانعكست انوار الصليب على تجاعيد وجه اليمّ العظيم القاتم، فاضطرب وازبد وأرغى . ولمست شزرًا شفرات امواجه المتكسرة على صخور لبنان المسيحي . . .

* * *

كيرياليسون !

صدى الهتاف العظيم، الذي كان يتصاعد منذ ستة عشر قرناً من صدور الجماهير الغفيرة المحتشدة في اورشليم، وحماه، والقسطنطينية، لمشاهدة ارتفاع الصليب، يجيبه الان الشعبُ اللبناني المسيحي الصغير بعدده، الكبير بأمانته وشجاعته وتقاليده.

كيرياليسون !

صدى مئات الآلاف من النواقيس التي كانت تقرع فرحاً في مساء هذا العيد في كل انحاء الشرق، وقد خفتت اصواتها في سورية منذ ثلاثة عشر قرناً، تردّده الآن أجراسُ لبنان من داخل اقنيتها الرخامية، واصوات اللبنانيين من

داخل اقفاص صدورهم.

محبةً لدين المسيح ! كيرياليسون !

صدى بعيد من نـداء مقدّمي لبنان المسيحيين حـين كانوا ينقضون على الاعداء كالبواشق الكواسر ليردّوهم عن جبلهم العزيز ويصونوا حريتهم الدينية والمدنية ، يردّده الان احفادهم في ليلة هذا العيد ، مطنين استعدادهم لبـذل المهج في سبيل استقلالهم الروحي والزمني.

كيرياليسون !

شعلةٌ من آلاف الحرائق التي كانت تستعر في مثل هذه الليلة في احشـاء الامبراطورية البيزنطيـة ، وقد انطفأت منذ سقوطها في اواسط القرن الخامس عشر ، يذكي الآن جمرتها ويضرم اوارها هؤلاء الجليون المستقيمو الرأي ، على قمم طورهم المقدس ، في عيد تجلي الصليب الكريم.

كيرياليسون !

صدى خطاب بديع بليغ تاريخي حماسي ألقاه ، في اواخر القرن الرابـع ، بجانب القبر المقدس ، القديس كيرلس اسقف اورشليم ، احد كبار الملافنـة والقديسين السوريين ، على الجماهير الوافـدة من كل حدب وصوب لمشاهـدة حفلات الصليب ؛ نسمعه الان بعد ستة عشر قرناً خارجاً من بطن مخطوطـة قديمة العهد احتفظ بها بطاركة الشعب الماروني ، ومن طيـات كتاب صلوات بيعية حافظ عليه أساقفتهُ في حلب . وقد أتيح لكاهن ماروني حلبي أن يبلّغ الى العالم المسيحي أقواله ، مفسراً الغامض من معانيها ، مرمماً الدائر من آياتها ، محبةً لدين المسيح ! كيرياليسون !

٣ ــ مخطوطة بكركي

وجدنا لهذا الميمر نصّين باللغة العربية مأخوذَين عن مصدر واحد : الاول في خزانة بكركي الحطية ، والثاني بين مخطوطات مكتبة الكرسي الاسقفي المارونى بحلب .

وفي المتحف القبطي بالقاهرة ميمران بالعربيــة على ظهور الصليب المقدس منسوبان الى القديس كيرلس الاورشليمي : الاول حديث المبارة مسجع يختلف عن نصّينا بشكله ، انما يظهر ان بعض تفاصيله مستقاة من نص ميمرنا الاصلي . وسنقول فيه كلمة . اما الثاني فيعوم موضوعــه حول استخلاص الملك هرقل لذخيرة عود الصليب من الفرس سنة ٦٢٩م ، اي بعــد القديس كيرلس بثلاثة قرون ، فلا داعٍ للاهتمام باسره . وله نسخة محفوظة في متحف مونيخ بالمانيــة تحت رقم ٢٤٢ . ولنحصر الآن كلامنــا في نصّي بكركي وحلب .

أذعنــا بشرى اكتشاف هــذا الميمر في صدر الجزء العاشر من مجلتنا البطريركية لسنتها الخامسة (١٩٣٠) ، في مقدمتنا على رسالة زرع يعقوب ملك الحبشة الى محمد جقمق سلطان مصر وسورية سنة ١٤٤٧م . ونشرنا بهذه المناسبة بيانًا موجزًا للمخطوطة التي أثبتته . واليك خلاصة ما قلناه فيها :[1]

« بين مخطوطات خزانة الكرسي البطريركي المارونى في بكركي كتاب كرشوني حزين ، قديم التجليد ، قطع من الحجم ٣٣×٢٣ سنة . خشبي الجلد ثقيله ، سميك الورق متينه ، أسود الحبر لامعــه ، ما عدا العناوين فبالحبر الاحمر ، تعلوها وفارف مزخرفة بشتى الالوان . وقد رُقّمت كراريسه بالاحرف الاسطرنجلية ، ودُلّ على آخر الجملة بنقطة حمراء ، وعلى نهاية المعنى باربع نقع من اللون ذاته محيطة بنقطة سوداء . أعدّه صاحبهُ للخلود . فجهزه بورق متين وجلد ثخين ، غير حاسب للعثة حسابًا . فقد عاثت في أوراقــه بلا رادع ، وعشّشت فيهــا

---

١) المجلة البطريركية ٥ : ٦٤٩

الرسم ١ – عجلة السنين الواردة في الصفحتين ٢٥٤ و٢٥٥ من مخطوطة بكركي

بطمأنينة ، وخاطت بعضها ببعض لاهية ، فذهبت بقسم من حروفه وأرقامه . ولم ينثنِ عزمها امام صلابة دفتيه الخشبيتين ، المكسوتين بجلد من بقر ، بل هاجمتهما ومخرتهما . وكادت تطوي السفر النفيس في خبر كان ، لو لم ننجده عليها في خريف سنة ١٩٢٢ ، حين كلّفنا غبطة بطريركنا المبجل مار الياس بطرس الحويك تنظيم مخطوطات هذه الخزانة . فعيّنا له رقم ١٥ في القائمة التي وضعناها عندئذٍ . وفي سنة ١٩٢٩ ، لما نقلنا مجلتنا الى لبنان استفقدناه فألفيناه بحالة غير مرضية ؛ اذ أعادت عدوّة المخطوطات عليه الكرّة . فانتقذنا كنوزه من براثينها نهائياً بنشر اثمها ، حتى اذا تغلّبت عليه للمرة الثالثة ، وهي لا شك فاعلة لرطوبة المكان ، لم تفز منه الا بما تدنّت قيمته .

« واول ما وجهنا اليه العناية ، بعد نفض غباره وانقاذه من الجراثيم الآكلة فيه ، وضع الارقام على صفحاته ، فبلغت ٤٩٤ قياس الواحدة ١٨×١٣ سنتمتراً . وبين الصفحة ٤٤ والتي تليها سبع ورقات مسلوخة ، تضمنت موضوعاً او اكثر قائماً بنفسه ، لان الموضوعين السابق واللاحق كاملان .

اما اسم الناسخ فوارد فيه مرتين . في الصفحة ٣٥١ رسم متقن لعجلة السنين[1] مع ايضاحات بالسريانية لمعرفة عيد الفصح على الحساب اليولياني[2] ابتداء من سنة ١٨٦٩ يونانية الموافقة لسنة ١٥٥٨ مسيحية . وقد علّق الناسخ في الصفحات ٣٥٥–٣٥٨ شرحاً على اختلاف هذا الحساب والحساب الشرقي تحت العنوان الآتي :

« بيان الغلطة من اين صارت بين النصارى [كتب] ذلك وبيّنه الخفير في الكهنة يوحنا طاتيه . . . وهذه العجلة موقّمة على حساب الكرسي الرسولي كرسي رومية . . . وهو يقيم اليوم الزايد من كل سنة في حسابه ويجعل الفصح بخمسة في نيسان . ويتبعه في ذلك الملكية

---

١) انظر الرسم ١

٢) نسبة الى الامبراطور الروماني يوليوس قيصر الذي استقدم من الاسكندرية العالم الفلكي سوسيجنيس في سنة ٤٦ ق . م . فجعل السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً وست ساعات . فزادت السنة ١١ دقيقة و ١٠ ثوان . وقد اصلح غريغوريوس ١٣ هذا الخطأ سنة ١٥٨٢ فسُمّي حسابه بالغريغوري . وهو الذي يتمشى عليه العالم اليوم . (راجع مجلة المشرق ك ٣ الاخير صفحة ٤٨و٤٩)

وسيطنا وجميع معاملات الغرب . واما النساطرة والباقية فانهم يسقطوا ذلك اليوم الزايد في حسابهم ويعملون الفصح في ستة من نيسان »

وفي آخر الشرح صفحة ٣٥٧ يقول :

« علّموا على الخاطي الحقير في الكهنة يوحنا ابن الخوري ايوب الذي اجتهد وبيّن ذلك بمعونة روح القدس . وهذا كتبناه لطائي الكرسي الرسولي . . . »

ومن هذا نستدلّ ان الكاتب كاهن ماروني يُدعى يوحنا ابن الخوري أيوب . ولعله القس يوحنا ايوب الحصروني الذي اوفده البطريرك سركيس الرزي الى رومية سنة ١٥٨٢[1] . انما قد نسخ كتابه قبل هذه السنة التي ظهر فيها الحساب الغريغوري . ولما كان التقويم يبدأ بسنة ١٥٥٨م فالمرجح ان الكتاب نسخ سنة ١٥٥٧ او على الاكثر قبيل فصح سنة ١٥٥٨ المذكورة . ولولا ذلك لما بدأ تقويمه بتلك السنة لمعرفة ميعاد فصحها .

اما المصدر الاصلي الذي نقل عنه ناسخ المخطوطة ، او من سبقه ، فيغلب على الظن انه مجموعة لاحد السريان اليعاقبة القاطنين في القطر المصري ، حيث كان لهم شان يُذكر . كما بيّنه حضرة الخوراسقف اسحق ارملة في مقالة كتبها لمجلتنا السورية[2] .

ويُستدلّ على جنسية الجامع السريانية ومذهبه اليعقوبي من كثرة الموضوعات المأخوذة عن آباء السريان واحبارهم[3] ، كيعقوب السروجي ، ومار اسحق السرياني ، والبطريرك يوحنا ابن المعدني ، وموسى بن حجر المرصلي . وهو يلقب هذين الاخيرين بالقديسين وبطلب صلواتهما ، وهما يعقوبيان . ولا يبعد ان يكون موضوع الاوراق السبع المسلوخة قد حوى ما يشتم منه رائحة هذه البدعة فنزعها الناسخ او صاحب الكتاب .

والدليل على ان جامع المخطوطة كان نازلًا وادي النيل نجده في ايراده

---

١) راجع تاريخ الموارنة للادبس صفحة ٢١٧

٢) ١ : ٥١٤ و٢ : ٧ ، راجع ايضاً مقالته الاكثر اسهاباً في مجلة المشرق ٢٣ : ٣٨٢ و٣٨٤ و٥٢٦ و٥٧٤ و٧٤١ ، وقد طبع نبذته هذه على حدة في المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٥

٣) راجع ايضاً في مجلتنا البطريركية ٥ : ٦٥٢ – ٦٥٥

اسماء الاشهر القبطيـة. واذا وردت باسم آخر قابله بالشهر القبطي. ففي صفحة ٢٤١ يقول عن اليهود انهم باشروا « ازالة الروم عن قبر السيد المسيح في الثاني عشر من شهر مارديوس الذي هو برمهات (اذار) ومـا زالوا يعملون فيه الى الثالث عشر من شهر توت (ايلول) » وقد جاء في عنوان قصة القديس بهنام ، الذي له مكانة كبيرة في كلدار السريان ، انه « اكمل جهاده في العـاشر من كانون الاول سنة ٦٣٣ لاسكندر وهو الرابع عشر من كيهك » . ولعل اهتمام الجامع باثبات رسالة ملك الحبشة المذكورة اعلاه الى سلطان مصر ليرفق بالمسيحيين من رعاياه ويرفع عنهم الجور في معاملات الوراثة وغيرها دليـل آخر على ان المجموعة وُضعت في القطر المصري.

ومواضيع المجموعة كلها مكتوبـة بالحرف الكرشوني ، ما عدا رسالة ملك الحبشة فبالعربية، وتعزية للموتى، وميمر للجمعة الكبيرة كتبها بالسريانية. اما ميمر القديس كيرلس الاورشليمي فقد ورد بالكرشوني ايضاً وشغل ٦٤ صفحة من المخطوطة من صفحة ١٨٧ حتى ٢٥١ . وسندلّ على هذه الصفحات بارقام نضعها بين قوسين معكوفين كما هي عادتنا.

٤ ــ مخطوطة حلب

ما كدنا ننتهي من درس نصّ الميمر واعداده للطبع حتى علمنا من مطالعة كتاب « الفروض البيعية في كنيسة حلب المارونية » الذي وضعه المأسوف على علمه الخوراسقف جرجس منش الحلبي[1] ، ان بين هذه الفروض المخطوطـة صلوة بالسريانية لعيـد ارتفاع الصليب ، أُلحق بها ميمر للقديس كـيرلس الاورشليمي على ظهور عـود الصليب . فاسرعنا بالاستفهام عنه حضرة الاب فرنسيس ايوب ، وكيـل مجلتنا في سورية ، وطلبنا اليه نصّ الفقرتين الاولى والاخيرة منه ، فوجدناها مطابقتين حرفياً لنصّ ميمر بكركي. ولمـا كان ميعاد سفرنا الى رومية قريباً ، لا يسمح لنـا بالذهاب بنفسنا الى حلب ،

(١) صفحة ٥٧ ، طبع بالمطبعة المارونية بحلب سنة ٩٢٦

رجوناه ان يستنسخ لنا الكتاب كله بالتصوير الشمسي. فلبى طلبنا حالًا واتحفنا بمعلوماته عن المخطوطة « انها موضوعة تحت رقم ١٠٤٣ من مكتبة القلاية ، مكسوة بجلد قديم لحق الهراء بعضه وذهب باطراف بضع ورقات. قياس صفحاتها ٢٨ x ١٦ سنتمترًا. وعددها ١٦٦. يشغل الميمر المكتوب بالكرشوني الصفحات الاربع والسبعين الاخيرة منها. اما ما سبق فيتضمن فرض عيد الصليب بالسريانية ، المؤلف من صلوات المساء ، والستار ، والليل ، والصباح » وقد لاحظنا ان بين صفحة ٣٦ و٣٧ قد سقطت ورقة خاوية لحكاية ردم اليهود لقبر السيد المسيح ، التي وردت في الصفحات ٢٢٣ - ٢٢٤ من مخطوطة بكركي. وسنشير اليها في حينها. وفي ذيل المخطوطة قرأنا الحاشية التالية:[1]

« ثم كمل هذا القشمشت على يد احقر الناس واعجمهم وارذلهم بفعاله الوسخة القبيحة الكامل في كل عيب مركيس الشفي من قرية كمرحورا المحروسة[2]. وكان ذلك في سنة الف وثمانماية تسعة وستين ١٨٦٩. وكانوا المتنيين في هذا الكتاب جماعتنا الموارنة الناطقين في مدينة حلب على يد ابن عمي الشماس جبرايل. الله يجازيهم الخير امين ويخلصهم من اعدائهم امين. الرب يرحم من يترحم على حقارتي الناقل والمتنين امين »

« اجعل يا رب ذكرًا صالحًا لمعلمي[3] لاخي الحبيس ميخايل المتنى في تدبير حقارتي في النفس والجسد الله يوفيه في ملكوته السماوية امين ولمعلمي المطران مالك ولابن خالي القس ابراهيم وللاخ الشماس جرجس صاحبين الفضل والاحسان علي. ولاخوتنا الرهبان القسوس والشمامسة القاطنين معنا في الوادي المبارك. الله يخلصلنا ولهم من جميع الضربات الشيطانية امينه »

وفي اسفل الصفحة حاشية أخرى بالكرشوني كُشط اسم كاتبها وغطيت كلماتها بالحبر ، توصلنا الى قراءة هذه الكلمات منها:

« قري في هذا الكتاب المبارك . . . اله . . . ابن الياس ؟ . . . من قرية اعدن . . . في سنة الف . . . وعشر . . . في ايام البطريرك يوحنا مخلوف الهدناني (؟) مكّنه لاكمًا معصمًا »

وقد توصلنا بعد البحث الى معرفة اسم الدير الذي نسخ فيه هذا الميمر وهوية الاشخاص الثلاثة المذكورين في الحاشية: اي الحبيس ميخائيل، ومركيس الناسخ، والمطران مالك. اهتدينا اليهم من اسم هذا المطران، الذي ذكره الدويهي[6] بقوله:

---

١) انظر الرسم ٣
٢) من مقاطعة الزاوية في ساحل لبنان الشمالي
٣) يوتانية اعني سنة ١٥٥٨ م
٤) شطب الناسخ على كلمة معلمي بعد ان كتبها
٥) ١٦٠٩-١٦٣٣
٦) ص ١٦٨ من تاريخه المطبوع في بيروت

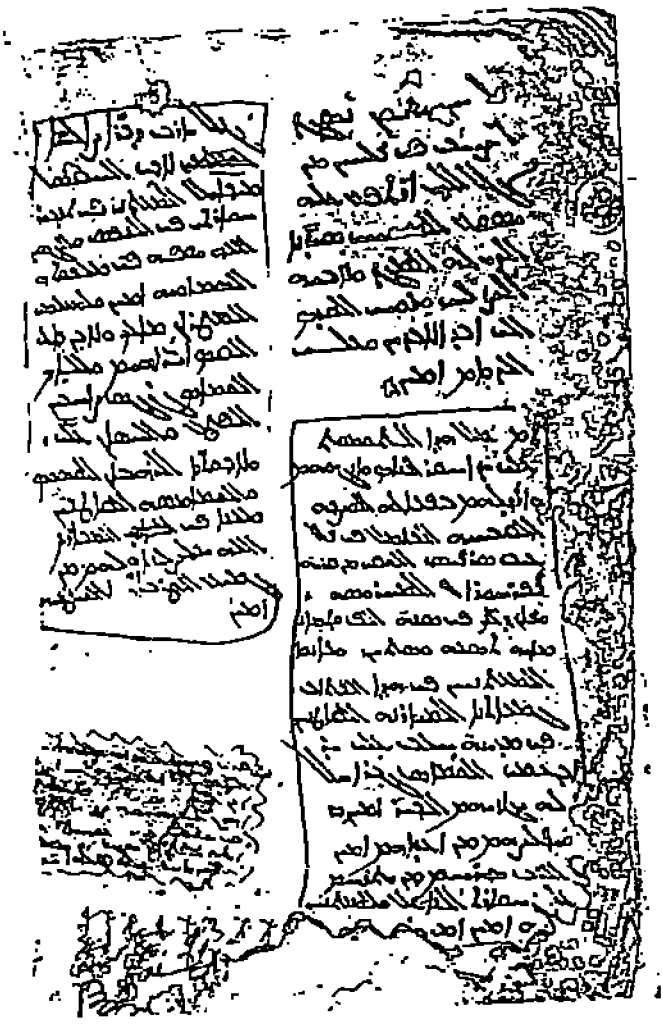

الرسم ٢ - حاشية الناسخ في ذيل المخطوطة الحلية

« في سنة ١٥٦٠ انتقل الحبيس ملكا البقوفاوي وكان قد مضى له ستون سنة في النسك والزهد. اعتزل اولاً في دير قزحيا ثم في دير مار دوميط داريا. ثم في كنيسة السيدة المقطوعة بالشيف مقابل هرجس. ثم في كنيسة مار ميخائيل في دير قزحيا. »

فالمطران مالك قضى اذاً الشطر الاخير من حياته في محبسة قزحيا ، وتوفي فيها بعد انجاز نسخ هذا الميمر بسنتين.

واذا عجبتَ من ايراد الناسخ لاسم الحبيس ميخائيل قبل اسم المطران مالك المذكور فاعرف انه البطريرك ميخائيل الرزّي الذي قال عنه الدويهي[1] ما يلي :

« وفي سنة ١٥٦٧ في التاسع من اذار كانت وفاة الاب الصالح البطريرك موسى المكاري وفي اليوم الثاني عشر اتفق رؤساء الكهنة واكابر الطائفة على الحبيس ميخائيل بن الرزّي من قرية بقوفا وكان رئيساً سابقاً على دير قزحيا وعلى المحبسة. ولكنه اعتزل رئاسة الدير المذكور وانتقل الى محبسة مار يشاي راغباً في الوحدة. فلما قضى الله بوفاة البطريرك موسى اجبرته الطائفة رغماً منه بتدبير الكرسي الانطاكي واقاموا مكانه في الحبس اخاه القس سركيس البقوفاوي ».

فناسخ الكتاب « الثنتي سركيس من كفرحورا الكامل في كل عيب » هو اذاً البطريرك سركيس الرزّي ، اخو الحبيس ميخائيل رئيس الدير حينئذ ، وتلميذه. وهذا السرّ في انه ذكره قبل المطران مالك ولقبه اولاً « بمعلمي » ثم ضرب على هذا اللقب فكتب « اخي » . ويرجح ان الحبيس ميخائيل أمره بذلك تواضعاً. واغلب الظن انه هو ايضاً الذي ناظر على نسخ الميمر وأملى على اخيه الفقرات الزائدة الدخيلة ، كما سنشرحه في ما يلي. اما انتساب الناسخ الى قرية كفرحورا ، مع ان الدويهي يجعله مع اخيه من بقوفا ، فسببه ان اهل اهدن ، الواقعة شمال بقوفا ، بعد ان طردوا اليعاقبة من قريتهم[2] هجموا على قرية بقوفا ، المواجهة لهم ، وخربوها لانحياز سكان الجزء الاسفل منها الى اليعاقبة . فاضطر آل الرزّ الساكنين في المحلة العليا منها ، مع انهم صانوا انفسهم من البدعة ، ان ينزحوا الى قرية كفرحورا في الزاوية. وما برحوا فيها

---

١) الدويهي: ص ١٧٠

٢) الدويهي: ص ١٤٢

وفي جوارها حتى اليوم[1].

وسركيس ناسخ الميمر قد خلف اخاه على رئاسة المجمعة سنة ١٥٦٧ كما رأيت وعلى الكرسي البطريركي سنة ١٥٨١، كما ذكر الدويهي ايضاً في حوادث هذه السنة[2].

ولاحظ هنا ان الجماعة الثلاثة المذكورين في الحاشية اصلهم من قرية بقوفا. والسبب في اجتماعهم في دير قزحيا ان باني محبسة مار ميخائيل التابعة لهذا الدير، هو القس بركات البقوفاوي[3]. وقد اشتهر رؤساء هذا الدير ورهبانه بنشاطهم في نسخ الكتب البيعية والروحية. ذكر الدويهي عن رئيس هذا الدير الاسقف يوسف الجاجي (ت ١٥٤٤)[4] انه لم ينقطع حياته عن نسخ الكتب البيعية حتى امتلأ جبل لبنان من خطه الجميل كتباً[5] وهكذا كان خلفه الاسقف جبرائيل ابن شقيقته[6] الاهدني (ت ١٥٥٦) الذي تولى الجاثليق ميخائيل مكانه[7].

ومما يهمنا من كل ما تقدم ان سركيس الوزي نسخ الكتاب في دير قزحيا سنة ١٥٥٨ م، حين كان راهباً بسيطاً، تحت مناظرة الجاثليق ميخائيل اخيه ومعلمه ورئيس الدير في تلك السنة. ولعل المطران مالك شاركه في هذه المهمة وفي التأثير على الناسخ لادخال ما ارتأياه تحسيناً وتكميلاً للموضوع.

اما كيف اتصل هذا الميمر بالموارنة مع بعدهم عن القطر المصري وانقطاع علاقاتهم بأهله فيغلب على الظن انهم اخذوه من رهبان الاقباط في القدس، الذين كانوا يجاورون دير الموارنة، واحتلوه بعد ان هرب رهبانه على اثر وقوع شخص في البئر، كما هو مشهور[8].

(له صلة)

---

١) راجع تاريخ الموارنة للمطران الدبس: ص٢٦١
٢) الدويهي: ص١٧٧
٣) الدويهي: ص ١٤٢
٤) الدويهي: ص١٦٢
٥) الدويهي: ص٢١٦
٦) الدويهي: ص١٦٦
٧) الدويهي: ص ١٦٧